

التواصل البيداغوجي والخطاب القرآني

Pedagogical communication and quranic discourse

المصطفى دلال*

جامعة السلطان مولاي اسليمان، بني ملال / المغرب mustapha.dellal79@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2022/05/22 تاريخ القبول: 2022/06/30 تاريخ النشر: 2022/06/30

ملخص:

تناولت في هذا المقال موضوع علاقة التواصل البيداغوجي بالخطاب القرآني، وهو موضوع سعيت من خلاله إلى البحث عن التقاطعات القائمة بين بعض المبادئ المتعارف عليها في علوم التربية الحديثة، وبين القرآن الكريم، بحيث عرفت التواصل البيداغوجي، ووقفت عند الخصائص التي اتسم بها التواصل في القرآن الكريم، لأننتقل بعد ذلك إلى الكشف عن الملامح البيداغوجية التي تعن عند تأمل آي الذكر الحكيم مركزا على التواصل البيداغوجي بالمفهوم العام، وعلى التواصل البيداغوجي بالمفهوم الخاص، تواصل بنيته على المواقف القرآنية التي التقت مع مفهومي: الزمن البيداغوجي والتيسير البيداغوجي، وقد ذيلت الموضوع بخاتمة أفردتها للاستنتاجات العامة التي توصلت إليها.

كلمات مفتاحية: الخطاب القرآني- - التواصل البيداغوجي - زمن التعلم - التيسير البيداغوجي

Abstract : I covered in this article a topic of relationship of pedagogical communication and quranic discourse, and I sought to find intersections between the principles of educational sciences and the Noble, That is why I knew pedagogical communication, after I look for Characteristics of communication in the Holy Quran.

And in another step I reveal the pedagogical features in the Qur'an, and I focus on the following points:

- Pedagogical communication in the general special meaning.
- Pedagogical communication in the special meaning.

- Pedagogical time. / - Pedagogical facilitation.
- I have conclude the topic with its findings

. **Keywords** Quranic discourse - Pedagogical communication- Pedagogical time- Pedagogical facilitation

1. مقدمة:

نزل القرآن الكريم باعثاً ثورة معرفية أسهمت في جمع مادة لغوية رصينة، مما أثرى علومها لغوية شتى، علومها بلغت في النضج شأواً بعيداً، فالعرب الأوائل لم تعترضهم حواجز تقف دون فهمهم للغة العربية، وتمنعهم من توظيف أساليبها الشائقة النفيسة، فكانوا هم أهل لغة بامتياز، وبالاتي لم يكونوا ليشيروا الكثير من القضايا التي طرحت في ما بعد، ومرد ذلك إلى انحباسهم في الصحراء وانشغالهم بفنون القول، الأمر الذي جعلهم ينصرفون عن البحث في قضايا اللغة، كما أن انشغالهم بنشر الدعوة أَخَّرَ خوضهم في القضايا اللغوية، فاكثفوا منها بأحكام ذوقية انطباعية خالية من التعليل، وحقيقة القول إنهم لم يلتفتوا للظواهر اللغوية التي زخرت بها متونهم من نحو وصرف وبلاغة و صوت، ولم يناقشوا الظواهر اللغوية التي حفل بها القرآن الكريم في هذه المرحلة، و"لم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص" (ابن المثنى، 1381، ص 8)

ولما انتقل العرب من مرحلة المشافهة إلى مرحلة التدوين، وجمعت المتون، بدأ التأصيل للنصوص، وشُرِعَ في استنتاج المدونة اللغوية، فكان النص القرآني من الكتب الذي حظيت بقسط وافر من الدراسة والتأمل والسبر، فتوزع مجال البحث فيه بين النحاة والبلاغيين والمفسرين والأصوليين، فكان هذا الكتاب "الدرة الثمينة التي حرص المسلمون عليها، وحفوا إلى الذود عنها واختصاصها بالعناية، فكان لهم بإشعاعها وببريقها ما أضاء لهم عقولهم بالمعرفة، فأنشأوا وألفوا ما يعين على صحة تلاوته، وعنوا باللغة ليبينوا عروبة كلماته وفصاحة نصه وأنه نزل بلسان عربي مبين" (حسان، 1981، 296)، ومدار الأمر كله على عربية لسانه، فجاءت النتائج يانعة ارتقت معها العربية إلى أوج الازدهار.

لقد كانت للقرآن الكريم هذه الدفقة العلمية الوافرة، دفقة أثرت علوم العربية في مختلف فروعها، وألهمت العلماء ليؤسسوا لعديد القضايا اللغوية والفكرية التي ارتبطت بالكتاب المبين، لذا أثرت في هذا المقال أن أجعل من القرآن عمادا للكشف -من خلاله ومن خلال الخطابات التي ارتبطت به- عن ملامح من التواصل البيداغوجي التي حواها، مستتيरा في ذلك بما توصلت إليه علوم التربية الحديثة في هذا المجال، وسأعتمد على مبدأ الاتزان والاعتدال، نائيا عن الإغراق الذي وسم بعض الدراسات حينما حملت الآيات القرآنية أكثر مما تحتمل، فلوت بذلك أعناقها خدمة لنتيجة معدة سلفا من دون التفكير في السبل المشروعة التي تُسلك إليها .

2. خصائص التواصل في القرآن الكريم:

1.2 التواصل في القرآن الكريم تواصل بياني:

التواصل في القرآن الكريم ليس كغيره من أنواع التواصل المعروفة ذات الطابع العفوي الذي تغيب فيها الأهداف حيناً، وتحضر حيناً آخر، التواصل في القرآن مؤسس لقيم شتى ولغايات كبرى، مؤسس على وسائل ناجعة، وآليات لغوية ضابطة للأهداف والمرامي، إنه تواصل مبني على ركائز ودعائم لأجل مد صروح القصد والأهداف، أهمها تمثين وشائج الصلة بالله عز وجل، وتمثين الأواصر به، ومد عرى التعارف بين القبائل والشعوب كما شهد القرآن بذلك، وأول هذه السمات هو أنه تواصل بياني.

من السمات العامة المميزة للنص القرآني أنه خطاب بيان وإبانة، يقول تعالى: {وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } الشعراء 195

فالقرآن - كما سبق و أسلفنا - رسالة ربانية إلى الرسول الكريم عن طريق أمين الوحي جبريل لغاية إنذار الناس، وهذا الإنذار هو إنذار واضح ظاهر، وإلى هذا المعنى يشير الشعراوي بقوله: "ومعنى مبين أي واضح ظاهر محيط بكل أفضية الحياة" (الشعراوي ، 1997 ، ج1/ 10692)

من هنا يتضح أن القرآن الكريم في مجمله مبني على البيان، بل إن قناته قناة بيانية بامتياز، فاللسان العربي لسان إبانة وإيضاح، بل الإنسان نفسه قد أودع فيه الله هذه الميزة، ميزة البيان: {الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } الرحمان الآية 1-4 .

ولأجل الإبانة يقول تعالى: {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا } الإسراء {106} ، ولصاحب التحرير والتنوير مذهب لطيف في سياق هذه الآية "يقال فرق الأشياء إذا باعد بينها... ويطلق الفرق على البيان، لأن البيان يشبه تفريق الأشياء المختلفة فيكون فرقناه محتملا معنى بيناه وفصلناه" (بن عاشور،

1984ج15، ص231)، فيكون الأصل في تنزيل القرآن منجما قصد إظهار معانيه، وتجلية دلالاته عملا بأحكامه وفقا لما اقتضته حكمة الشارع، بل إن البيان نفسه يجري مجرى التواصل.

وعند الحديث عن البيان وارتباطه بالخطاب القرآني في شقه التواصل، فلا يقتصر الأمر فقط عند الجانب البلاغي؛ أي أن خاصية الفصاحة والبلاغة هي الصفة الجلية، بل إن الأمر يتجاوز ذلك ويتعداه إلى الأحكام المستنبطة، "إذ إن الخطاب القرآني هو بيان ليس فقط لأنه كلام مبين فصيح وبلغ إلى درجة الإعجاز، بل أيضا لأنه بيان للأحكام الشرعية" (الجابري 1993، ص 22)، ومما يدل على بيانية الخطاب التواصل في القرآن ورود ألفاظ البيان ومشتقاته بشكل لافت في النص القرآني، ومنها: **بيـان**/ **مبين**/ **تبـيان**/ **بيـنا**/ **تبـيين**/ **البينات**/ **البينة**، مما جعل العلماء يقولون أن القرآن الكريم جاء للإبانة والتبيين، وإلى هذا المعنى يشير الشافعي عند قوله: "ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ { النحل 89" (الشافعي، 1940 ص 40)

لذا كان التواصل في القرآن الكريم بجميع مستوياته؛ من تواصل الله مع ملائكته ورسله وأنبيائه وإنس وجن، ومن تواصل الأنبياء مع أقوامهم، خطابا بيانيا بامتياز لم يضاهه خطاب في الوجود من حيث قدرته البيانية مما يفضي إلى قوة حجاجية إقناعية مؤثرة.

2.2 التواصل في القرآن الكريم تواصل سياقي مقامي

يعد السياق ركنا قويا اعتمده العلماء بمختلف اهتماماتهم (المفسرون – البلاغيون – النحاة – الأصوليون) في توجيه الدلالات القرآنية، ونحن في هذا المقام التواصل كيف يجري التواصل مجراه دونما ابتعاد عن السياق، إذ السياق ظرف زماني أو مكاني أو حالي يفهم فيه معنى عبارة ما، وللقدماء وعي متقدم في الذي بالسياق، وأول الاستعمالات التي وصلتنا عن السياق مصطلحا نجدها عند الإمام الشافعي عندما بوب في كتاب الرسالة بابا سماه "الصنف الذي يبين سياقه معناه"، يقول رحمه الله: "فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها، وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر ويستغنى بأول هذا منه عن آخره، وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعاما ظاهرا يراد به الخاص، وظاهرا يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره. فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره." (الشافعي، 1940، ص 50)

يتضح من خلال قول الشافعي أن:

- الله سبحانه في تواصله مع العرب خاطبها بسياق لسانها.
- مراعاته عز وجل جميع أحوال كلام العرب، ومقاماتها الخطابية التخاطبية.
- السياق هو الفصيل وإليه يرد ما اختلف فيه.
ولما كان الأمر كذلك سنورد الأمثلة الدالة على الخاصية السياقية للتواصل القرآني.

قال تعالى: {خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} الدخان 47 - 48 - 49
جاءت هذه الآيات في مقام تواصل الله وجل مع زبانية جهنم، موجهة لهم أمره البالغ لبسط العذاب للطغاة وللعصاة، ولو وقفنا عند الآية التاسعة والأربعين {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}، وحاولنا فهمها بمعزل عن مناسبتها للآيات السابقات، لكان فهمنا لها مخالفاً، إذ الذوق مرتبط بخلو الحياة والعزة والتبجيل، وكل ذلك يخالف العذاب الذي سلطه على العصاة، من اقتياد بقسوة إلى الجحيم، وصب الحميم فوق الرؤوس.

يقول ابن عاشور: "وقوله: إنك أنت العزيز الكريم خبر مستعمل في التهكم بعلاقة الضدية، والمقصود عكس مدلوله، أي أنت الذليل المهان، والتأكيد للمعنى التهكمي." (ابن عاشور، 1984 ج 25 ص 316)

فالذي ذهب إليه ابن عاشور - بكون المقصود من الآية هو ضدها وعكس مدلولها - ينم عن توسله بالسياق العام للآية، سياق تواصله عز وجل مع الكافرين الجاحدين، وهذا من مظاهره "أنه يكون تارة على شكل ترهيب حتى يتفكر هذا الإنسان في قول الله عز وجل قبل فوات الأوان" (الماوردي، 1993، ج 1، ص 373).

يتضح جلياً إذن أن القرآن الكريم، في أثناء تواصله مع مختلف الأجناس، يستحضر البعد السياقي والمقامي، على أساس أن السياق التواصل، "يرشد إلى تبين المجملات وترجيح الاحتمالات وتقرير الواضحات، وكل ذلك يعرف بالاستعمال، وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذماً، وإن كانت مدحاً بالوضع" (الزركشي، 1994 ج 8، ص 55) كقوله تعالى {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} الدخان 49.

ومن هنا نهتدي إلى إن السياق حاضر في توجيه الدلالات الثاوية في جميع البنات التركيبية والدلالية والصرفية للقرآن الكريم، الأمر الذي يفضي إلى دلالات خاصة يسيجها المقام التواصل في القرآن بجميع أشكاله وأنواعه.

2.3 التواصل في القرآن الكريم تواصل مقصدي

لا يقوم التواصل في القرآن الكريم إلا على مقصدية، ولغايات، إنه ينأى ويرتفع عن كل تواصل عبثي، إنه تواصل ذو لبنات مبنية بإحكام، وذو أدراج رصفت بعناية خدمة للمقصدية الكبرى، إنها مقصدية معرفة الخلق جميعاً لحقيقة إيجادهم،

حقيقة عبادة الله عز وجل عن طريق تحقيق فرائض الاستخلاف في الأرض قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} البقرة الآية 30 ، ونسوق أمثلة على هذه المقصدية الرائعة، مقصدية التواصل القرآني :

ففي سياق تواصل نبي الله يوسف مع صاحبي السجن، جاء الخطاب الذي واجه به النبي صاحبي السجن نداء، وشكل جوابه استفهما ذا سمة تنويرية بالغة، يقول تعالى: {يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} يوسف 39"، إن التواصل الحاصل في هذه الآية ينم عن التوجه الإصلاحية الإرشادي الدعوي للأنبياء، إرشاد مهما ضاق المكان الذي حلوا به، ومهما تأزمت الأحوال وعسرت الأمور، وأية عسرة أقطع من أن يتوارى الإنسان في قعر مظلمة الجدران، ومن دون ذنب أو مُقْتَرَف، ومع ذلك فلا بد للدعوة أن تسير سيرها الحي، يقول سيد قطب: "وينتھز يوسف هذه الفرصة ليبث للسجناء عقيدته الصحيحة، فكونه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة القائمة على إعطاء حق الربوبية للحكام الأرضيين وجعلهم - بالخضوع لهم - أرباباً يزاولون خصائص الربوبية ويصبحون فراعين." (قطب ، 1412هـ ، ج4ص، 1989، 1988).

يتضح أن سيدنا يوسف فتح باب التواصل مشرعا مع السجينين، موظفا كل ما حباه الله به من لطف قول، ولين كلام خدمة لمقصده الأساسي، إنه المقصد الشرعي، مقصد إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وإرادة يوسف كانت عازمة على إعلان الولاء، والانتماء إلى الله سبحانه وتعالى، هذا الولاء وجه وجهة صحيحة، و ذلك باختيار الزمان والمكان المناسبين لمد قناة تواصلية في أحسن مقصد.

إن إستراتيجية يوسف عليه السلام كانت على قدر رفيع من الدقة والالتزان، إستراتيجية استدعاء كل ما من شأنه أن يطمئن السجينين، ويكسب ثقتهم، وهذا مما يفتقده البعض في أثناء تواصلهم مع الآخرين، إذ لم يمنع المنزل هذا النبي من التأثير في المتجاورين من أجل أن يخلص الكل العبودية لله، لقد رسم يوسف بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة، كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هذا عنيقا" (قطب 1412هـ، ج4ص، 1990). وهو بذلك يقر مبدأ صحيحا هو أصل الوجود وأصل الخلق والبحث، إنه مبدأ إقرار العبودية لله وحده، ليعلمها حقيقة مدوية يبطل معها كل رموز الشرك والضلال، وهذا مقام تواصل عال جدا، تواصل رباني تسلم فيه يوسف عليه السلام بكل مقومات التواصل وآلياته، إنه التواصل الواعي، وكان المقصد الرباني في قرارة نفس النبي يوسف مطلبا مروما تداعت له الأنفس مسلمة ليكون هذا التداعي حجة على نبوته.

3. التأصيل لمفهوم التواصل البيداغوجي في القرآن الكريم

3.1. البيداغوجيا و التواصل البيداغوجي

ترتبط البيداغوجيا بالتواصل البيداغوجي ارتباطا وثيقا، ويعرف المربون البيداغوجيا بأنها "كل نشاط يقوم به الإنسان بهدف تطوير التعلم لدى الفرد" (السليمان، 2010، ص 171)، وقد ارتبطت كلمة البيداغوجيا بالثقافة اليونانية، فمن حيث تركيبها فتتكون "من شقين وهما: "peda"، وتعني الطفل، و"Agôgé" وتعني القيادة وكذا التوجيه، وبناء على هذا فقد كان البيداغوجي هو الشخص المكلف بمراقبة الأطفال والأخذ بيدهم والمصاحب لهم، وتحولت وظيفة البيداغوجي من المربي بالمفهوم الواسع إلى المربي الناقل المعرفة باعتماد طريقة ما، فانزاحت البيداغوجيا من معناها الأصلي المرتبط بإشباع الطفل بالقيم إلى منهجية في نقل المعارف وتقديمها، وارتبطت بما بات يعرف بفن تدريس المعارف والخبرات التعليمية والتعلم ونقل المعلومة والتدريب. ("موقع wikipedia.org، تاريخ الاطلاع 2014/04/28).

وبحسب التقليد الإغريقي -تشير البيداغوجيا إلى مجموع الخطابات والممارسات التي كانت ترمي إلى تدبير انتقال الطفل من حالة الطبيعة إلى حالة الثقافة، وأن تخلق منه باختصار مواطنا صالحا" (غريب، 2001، ج2، ص 717). وفي الاصطلاحات التربوية المعاصرة فإن: "البيداغوجيا هي مجموع الممارسات النظرية والتطبيقية الهادفة إلى حل المشاكل المرتبطة بعمليات التواصل بين شخصين فأكثر، سواء أكانت هذه المشاكل في ميدان التربية والتعليم أم في المسرح والسينما، أم في ميدان المناظرات والعلاقات الثقافية" (السليمان، 2010، ص 172). وعليه يغدو التواصل البيداغوجي هو ذاك "التواصل الذي تتم من خلاله العملية التعليمية التعليمية، هذه العملية تتأسس في عمومها على ركائز ومكونات ضرورية تتجسد في المدرس والمتمدرس والمنهاج التعليمي، وبحكم أن عملية التواصل عملية دينامية وجدلية، فإن المدرس و المتمدرس يتناوبان على أداء دورَي المرسل والمستقبل وذلك بشكل تفاعلي، وهكذا يكون التواصل البيداغوجي بمثابة الميكانيزم الذي يتم عبره التفاعل بين المدرس والمتمدرسين بغية الوصول إلى أهداف تحدد قبلا". (الورياكلي، 2014/09/26)

من هنا فالتواصل البيداغوجي هو عملية تبادل الخبرات والتجارب بين طرفين أو أكثر باعتماد تقنيات فاعلة وهادفة في سياق مؤسسي يمكن تحديد أهم معالمه على الشكل الآتي: .

✓ يسعى التواصل البيداغوجي إلى تحقيق أهداف محددة ومرسومة من ذي

قبل .

- ✓ التواصل البيداغوجي ليس تواصلا عفويا اعتباطيا، إنه نشاط ذو طبيعة قصدية .
- ✓ التواصل البيداغوجي ينادى عن كل تواصل فجائي اقتضته ظرفية ما .
- ✓ التواصل البيداغوجي تواصل سياقي بامتياز.
- ✓ التواصل البيداغوجي أكثر خصوصية وأكثر تفردا عن جميع أنواع التواصل الأخرى .

✓ التواصل البيداغوجي نشاط مؤسّس ومؤسّس ، مؤسّس لأنه يخطط له قبلا سياقيا و زمانا ومكانا، ومؤسّس لأن النتائج المرجوة منه هي نتائج منتظرة التحقق بنسبة عالية، نتائج مرسومة سلفا، نتائج تؤسّس معرفة عالمة تنقل بطرق ما من المدرس إلى المتلمذ.

وحيث إن التواصل البيداغوجي في القرآن الكريم لم يرد لفظيا، ومادام اللفظ يفضي إلى معان ودلالات، وهذه المعاني لا شك أنها معطى تشترك فيه التعبيرات والمقامات والسياقات، فإننا سننلمس معاني التواصل البيداغوجي في القرآن الكريم، من خلال الكشف عن ملامحه، ثم الوقوف عند آليات اشتغاله اعتمادا على آيات ومقاطع تحمل من ملامح هذا الوسم، وتحتوي من السمات البيداغوجية ما يظهر جليا عند الكشف والمعاناة، سواء تعلق الأمر بالبيداغوجيا بمعناها العام أو بالمعنى الخاص.

3.2 التواصل البيداغوجي في القرآن الكريم بالمعنى العام

أشرنا سابقا إلى أن البيداغوجيا تجد جذورها في الثقافة اليونانية عندما حينما دلت على تربية الأطفال وتوجيههم، قبل أن تتحول مهمة البيداغوجي إلى نقل المعارف، وتقديمها إلى المتعلمين في ما بات يعرف بمنهجيات التدريس وخبراته. وإذا كان الأمر كذلك فإن القرآن الكريم حوى من هذه الإشارات البيداغوجية الشيء النفيس وفي كثير من آياته، ولنا في وصايا لقمان الحكيم لابنه المثال الشافي، إنه نوع راق من التواصل البيداغوجي في مفهومه العام، تواصل يستشف من الإضاءات القرآنية النيرة التي مدت قناة التواصل، وجعلتها مصوبة إلى أهدافها بشكل دقيق، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي غَمَينَ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ

إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ
يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بَنِي آقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ
وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
وَاعْصِضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ { لقمان من الآية 12 إلى
الآية 19

فانظر كيف أن الله وهب لقمان الحكمة التي تبوؤه القدرة على تقديم العظات
والنصائح، فالمربي لابد أن يرتوي من نبع الحكمة الصافي إن هو أراد الوصول
بالناشئة إلى الغاية المنشودة، ومن الإشارات التربوية الرفيعة في الوصايا، ومن
الملاحم البيداغوجية التي وسمت خطاب لقمان مع ابنه نستشف ما يأتي:

-أولاً: تدرج لقمان عليه السلام في نصح ابنه، فركز على النهي عن الشرك
أولاً؛ أي ما يعرف بصلاح الاعتقاد، لينتقل به إلى فضيلات الأعمال، من مكارم
الأخلاق ومحاسن الأفعال، وهذه إستراتيجية في النصح عظيمة النفع جليلة القدر،
تتماهى مع ما يعرف بترتيب الأولويات ونظيره في الفكر البيداغوجي احترام
الأولويات في رسم الأهداف لتثبيت الموارد والمعارف.

ثانياً: نهج لقمان عليه السلام خطاب اللين ذا السمة التحببية في مخاطبة ابنه
بمنأى عن أسلوب الغلظة والجفاء، إنه أسلوب استمالة القلوب، مما يجعلها تدعن إلى
النصيحة وتقبلها عن طيب خاطر، وهذا أسلوب مطلوب في عمليات التدريس لتحقيق
الانسياب التواصلي، وتلكم آليات مفقودة في الكثير من المدارس والمعاهد.

ثالثاً: تنويع لقمان عليه السلام أساليب الخطاب من نداء مُدُن إلى أمر مبعد إلى
نهي رادع، كما نجده يزواج بين أسلوب الترخيب والترهيب بطريقة متوالية، وهو ما
يمثل تنويع استراتيجيات التعلم، وطرائق التدريس، والمداخل اليداكتيكية في
الممارسات الصفية.

رابعاً: مخاطبة لقمان ابنه بأسلوب واضح يستوعبه العقل دونما عائق أو
حاجز، فجاءت مقاطع الوعظ قصيرة المبنى عظيمة الفائدة، ولاشك أن لقمان الحكيم قد
مد قناة تواصلية مجدية، إلى جانب ما حباه الله به من بلاغة قول وفطنة عقل، وقدرة
على التأثير، وهذه صفات وجب على المدس أن يعمد إلى صقلها في شخصيته، وأن
يطورها في أدائه، ثم عليه أن ينويع من أساليبه حتى يكون التواصل نفعياً، محققاً
للأهداف.

ويُجَمَل السيد قطب الميزة البيانية لأسلوب لقمان المؤثر في النصيحة
فيقول: "اتجاه لقمان لابنه بالنصيحة، نصيحة حكيم لابنه، فهي نصيحة مبرأة من
العيب، صاحبها قد أوتي الحكمة، وهي نصيحة غير متهمة، فما يمكن أن تنهم نصيحة

والد لولده. هذه النصيحة تقرر قضية التوحيد التي قررتها الجولة الأولى وقضية الآخرة كذلك مصحوبة بهذه المؤثرات النفسية ومعها مؤثرات جديدة:.. ويؤكد هذه القضية بمؤثر آخر فيعرض لعلاقة الأبوة والأمومة بأسلوب يفيض انعطافا ورحمة... ويتبع هذه القضية بمؤثر هائل وهو يصور عظمة علم الله ودقته وشموله وإحاطته، تصويرا يرتعش له الوجدان البشري وهو يتابعه في المجال الكوني الرحيب... والمؤثر النفسي بتحقيق التصغير والنفخة ملحوظ في التعبير. وقد عالجت القضية ذاتها في مجالها المعهود، بمؤثرات جديدة وبأسلوب جديد." (قطب، 1412هـ، ج5، ص2781)

وعلى هذا الأساس يكون القرآن الكريم قد جمع قدرا رفيعا من التواصل البيداغوجي في مفهومه العام، بل إن كل آياته جاءت لتحقيق هذه الغاية عن طريق الدعوة والتوجيه والإرشاد .

3.3 التواصل البيداغوجي في القرآن الكريم بالمعنى الخاص

3.3.1 التواصل في القرآن الكريم والزمن البيداغوجي

عرفنا التواصل البيداغوجي سابقا، وأشرنا إلى أهميته، ونقول إن التواصل البيداغوجي يقوم على مجموعة من المبادئ والأسس والمرتكزات ومن ذلك الزمن البيداغوجي؛ فهو يشكل أحد الدعامات الأساسية في الممارسات الصفية، لذا عني المربون عناية فائقة به وأولوه أهمية بالغة، بل عدوه من أهم التحديات التي تواجه المدرسة والسياسات التعليمية، وأن إهمالها الزمن البيداغوجي يجعلها تنن تحت وطأة المردودية الضعيفة والتحصيل المتدني .

إن للزمن البيداغوجي أهمية قصوى، فهو الوعاء الذي يسع المكتسبات والخبرات والقدرات التي يكتسبها المتعلم ضمن وضعية تعليمية-تعليمية معينة، فالتعلم لا يتم خارج الزمن، فامتلاك المتعلم مكتسباته وتعلماته ومهاراته المبرمجة ضمن وضعية تعليمية معينة، "إنه تلك المدة التي يستغرقها فعل أو حدث تعليمي ما إن الفعل البيداغوجي قابل للقياس بوحدات زمنية، وتعبير آخر يمكن ترجمة الفعل البيداغوجي إلى كم زمني معين حيث إن كل متغير تربوي / بيداغوجي / ديداكتيكي (يستغرق زمنا معيناً" (الصدوقي 2010 ص.ص 76/75).

ولنا الآن _ بعد أن عرفنا الزمن البيداغوجي وحددنا أهميته _ أن نرصد ملامح له في القرآن الكريم، و نحدد الأهمية التي منحت له، ليعد من صميم التواصل البيداغوجي، على أساس أن التواصل في القرآن الكريم تواصل زمني يرتقي فيه المخاطب من وضعية لأخرى.

قال تعالى: (لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ {16} إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ {17} فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ {18}) (القيامة)

ذهب صاحب التحرير والتنوير إلى أن لهذه الآية موضوعا خاصا من بين آيات سورة القيامة، فموضوع هذه الآيات ليس من مواضيع آيات سورة القيامة، ويبدو ذلك التباين على مستوى الموضوع واضحا، فما قبلها عبارة عن مشاهد من أهوال يوم القيامة حين يلاقى الكافر بسبب تكذيبه لحقيقة البعث وليوم النشور، وما بعدها كذلك لا يختلف عن كونه تنمة لتك المشاهد والمواقف حين تغلو وجوه الكافرين حلقة وسواد، ليقيم سبحانه الدليل القاطع على حقيقة يوم البعث وصدقه، والآيات - موضوع الاهتمام - بين المقطعين خطاب موجه للرسول الكريم: وهذه الآية وقعت هنا معترضة وسبب نزولها ما رواه البخاري ومسلم: "عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزل عليه القرآن يحرك به لسانه يريد أن يحفظه مخافة أن ينفلت منه، أو من شدة رغبته في حفظه، فكان يلاقي في ذلك شدة، فأنزل الله تعالى: {لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}، قال جمعه في صدرك، ثم تقرأه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، فاستمع له وأنصت، ثم علينا تبيينه بلسانك؛ أي تقرأه، فلما نزل الوحي في أثناء السورة للغرض الذي نزل فيه، ولم يكن سورة مستقلة، كان ملحقا بالسورة وواقعا بين الآي التي نزل بينها، فضمير به عائد على القرآن كما هو معروف في آيات كثيرة، وقوله فإذا قرأناه أي إذا قرأه جبريل عنا فأسندت القراءة إلى ضمير الجلالة على طريقة المجاز العقلي، ومعنى فاتبع قرآنه أي أنصت إلى قراءتنا". (ابن عاشور، 1984 ج 29، ص 349_350)

من خلال هذا الفرش لسبب نزول هذه الآيات _موضوع الدراسة_ وللسياق العام الذي وردت فيه والمعاني الحاملة لها يمكن الاهتداء إلى بعض ملامح التواصل البيداغوجي، ومن ذلك:

_ إن ورود هذه الآيات ضمن آيات سورة القيامة، وكون موضوعها ليس من موضوع السورة لدليل على أنه لا يجوز أن يتأخر موجه التواصل عند الحاجة إليه، فأيات سورة القيامة قول ثقيل، وحفظها تمام الحفظ أمر واجب، والعجلة في الحفظ أمر غير مرغوب، لذا جاءت هذه الآيات موجهة لعملية الحفظ، وهذا من صميم التواصل البيداغوجي .

_ إن للتعلم زمنا محددا، تحقق الأهداف مرتبط بهذا الزمن، والجودة تغيب عند تضيقه أو تقليصه، بل إن المربين ربطوا بين التفوق الدراسي أو فشله وبين المدة الزمنية المخصصة للتعليم، "فإذا ما تفوق تلميذ ما فإن ذلك يعود إلى أن زمن تعليمه ملائم لزمن تعلمه، وإذ فشل فإن ذلك يعود إلى فارق بين زمن التعليم وهو الزمن

الحقيقي _ temps reel _ والزمن الضروري للتعلم." (غريب، 2011، ج2 ص936)، والآيات دعت حقيقة إلى الحفاظ على الزمن الذي سيحفظ فيه الرسول الأكرم القرآن. إن الله سبحانه وتعالى – بمشيئته- قادر أن يُحفظَ الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن كله في طرفة عين، أو ليس سبحانه هو المُعْرِجُ بنبيه إلى سدرة المنتهى في زمن معجز؟ ولكنه سبحانه أراد أن يجعلها منهاج حياة، فانسجاما مع الفطرة السليمة، فإن الإنسان لا بد له من فترة زمنية لاكتساب المعارف، وتحصيل التعليمات، وهذه الفطرة نفسها تقتضي أسسا يشكل الزمن أحد دعائمها، والزمن الضروري للتعلم يستند إلى ثلاثة متغيرات أساسية: أولا قدرة المتعلم على الفهم والوقت الذي يحتاجه المتعلم في عمله ثانيا، وثالثا نوعية الأدوات والوسائل التعليمية اللازمة للمساعدة على إحداث التعلم" (غريب، 2001 ج2، ص936).

مسألة جمع القرآن في صدر النبي إشارة لطيفة إلى ضرورة الاهتمام بالمتن اللغوي جمعا وتحقيقا قبل الانتقال إلى الوصف والتحليل والاستنباط والدراسة والبيان، وهذه التفاتة جلية في القرآن الكريم، فعمليات التفسير لم تتم إلا بعد التحكم في المتن موضوع الدرس والتحليل.

إن الأدوات والروابط اللغوية الموظفة في الآية لمؤشر قوي على ضرورة الاهتمام بزمان الحفظ والتعلم، { لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُتَاجَلَ بِهِ {16} إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ {17} فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ {18} } (القيامة)، فتوظيف حرف العطف "ثم" عوض الفاء مثلا – وله سبحانه أن يوظف ما يشاء – "الفاء" التي تفيد دلالة الترتيب مع التعقيب و"ثم" التي تفيد الترتيب مع التراخي لدليل على ضرورة إقامة الشأن للمسافة الزمنية بين زمن جمع المادة وزمن دراستها، وهذه المسألة وعابها العلماء القدماء حقيقة الوعي، فجمعهم للمادة اللغوية كشف لهم عن قدرات هائلة في التحليل والاستنتاج، إن لتوظيف الأدوات والروابط في القرآن مقصدية كبرى، وإلى ذلك يشير عبد القاهر الجرجاني في سياق التمايز الدلالي بين حروف العطف بقوله: " فليس الفضل للعلم بأن الواو للجمع والفاء للتعقيب بغير تراخ... ولكن لأن يتأتى لك إذا نظمت شعرا أو ألفت رسالة أن تحسن، وأن تعرف لكل من ذلك موصفا ("الجرجاني ، 1992، ص 250). من هنا نقول: إن لتوظيف "ثم" في الآية حكمة بالغة، ودلالة بعيدة تتجلى في ضرورة التمكن من المتن متبوع بفواصل زمني قبل الإقبال على دراسته.

وللقرآن الكريم في هذه الآيات إشارات لطيفة ولفتات رانية في ضرورة احترام الزمن، والسياق بيداغوجي، إنه "الزمن الحقيقي للتعلم، ويدل على صدق المجهودات والطاقة التي ينوي المتعلم أن يبذلها لكي يتعلم شيئا ما، ويضاف إلى ذلك الزمن الذي يتاح له فعلا في سياق الوضعية التعليمية التعلمية". (غريب، 2001، ج 2 / 936)

ونعزز مسألة اهتمام القرآن الكريم بالزمن البيداغوجي وبدوره في إحكام المتعلم قبضته على الحد المقبول من التعلّمات بقوله تعالى : { وَفَرَّانًا فَرَقْنَاهُ لِنَقَرَّاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا } {الإسراء 106}. لقد جاءت هذه الآية في سياق وصفه عز وجل للقرآن الكريم للكيفية التي نزل بها وبيانه العبرة من تنزيله مفرقا أو منجما، يقول ابن عاشور: " ومعنى فرقناه جعلناه فرقا أي أنزلناه مفرقا غير مجتمع صَبْرَةً واحدة...ويطلق الفرق على البيان، لأن البيان يشبه تفريق الأشياء المختلطة فيكون فرقناه محتما معنى بيناه وفصلناه...وقد علل بقوله : لنقرأه على الناس على مكث؛ أي مهل وبطء وهي علة لتفريقه ، والحكمة في ذلك أن تكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين "(ابن عاشور، 1984 ج 15 / 231)، وحيث إن المهل والمكث مدعاة لحسن التلقي فإن إنزاله جاء على فترات زمنية متباعدة، "فعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قرأ مشددا (يعني فرّقناه)، وقال لم ينزل القرآن في يومين أو ثلاثة بل كان بين أوله وآخره عشرون سنة...على مكث بالفتح والضم على مهل وتوادة وثبت" (الزمخشري 1407هـ، ج 2 / 699)،

ونؤكد في هذا المقام أن القرآن الكريم جلى بوضوح الزمن البيداغوجي، وكشف عن آلياته، تطبيقا وتنظيرا، وقد كان رد الله سبحانه وتعالى على أولئك المجرمين من الكفار - كما وصفهم القرآن - الذين ردوا على صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم بكون القرآن نزل مفرقا قال تعالى { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا } { الفرقان الآية 32} إنها حجة واهية تلك التي كذب بها الكافرون الرسول وما أنزل عليه من قرآن مفرق، لقد أرادوه قرآنا ينزل جملة واحدة، وما دروا بالحكمة من ذلك؛ فجحدوه أن القرآن قول ثقيل، ومعدن نفيس أذهبهم مذاهب الإنكار والاستخفاف برسالة ربانية تتبع بالحكم البالغات، فجاء الرد قوي؛ "لنثبت"، و"التثبيت" من الأمر أو في الأمر يقتضي زمنا معقولا، وهذا واضح أمره عند كل عاقل ذي بصيرة، ولنا أن نتأمل هذا الكلام ذا الطبيعة البيداغوجية الرانية إلى استقصاء العلل، و تتبع الحكم من نزول القرآن مفرقا، يقول الرازي: "وعن ابن جريح بين أوله وآخره اثنتان أو ثلاث وعشرون سنة، وأجاب الله بقوله: كذلك لنثبت به فؤادك، وبيان هذا من وجوه : أحدهما أنه عليه السلام لم يكن من أهل القراءة والكتابة، فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه، ولجاز عليه الغلط والسهو، وإنما نزلت التوراة جملة لأنها مكتوبة يقرؤها موسى، وثانيها أن من كان الكتاب عنده فربما اعتمد على الكتاب، وتساهل في الحفظ فالله تعالى ما أعطاه الكتاب دفعة واحدة، بل كان ينزل عليه وظيفة ليكون حفظه لها أكمل، فيكون له عن المساهلة وقلة التحصيل، وثالثها أنه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق، فكان يثقل عليهم

ذلك، أما لما نزل مفردا منجما، لا جرم، نزلت التكاليف قليلا فكان تحملها أسهل" (الرازي ، 1420 هـ _ 24 ج/ 457)

يحدد الرازي حكما معقولة من وراء نزول القرآن مفردا، والمتتبع لهذه الغايات يدرك مدى حرصه تعالى على التخفيف الذي لازم التبشير برسالة الإسلام، إذ النزول امتد إلى مايقرب ثلاثا وعشرين سنة، إنها فترة زمنية ذات أهمية كبرى، فترة زمنية راعت حال الرسول في أنه لم يكن من أهل كتابة وقراءة، وتلكم حكمة أخرى، وهذا من صميم التعلم الفارقي أو التعلم الفردي بالمعنى البيداغوجي الحديث، كما أن هذا التفريق راعى مسألة أهم، وهي أن التعلم بالجملة أو ما يسمى بالتعليم الكمي غالبا ما تصاحبه اختلالات بينة، لذا لم يتم إنزال القرآن جملة واحدة، وذاك زعم واه من الكافرين، كما أن الله سبحانه وتعالى هيا للرسول كافة الأسباب عندما أنزل عليه القرآن منجما فكان الحفظ كاملا والإحكام تاما.

والذي يستفاد من ذلك على المستوى البيداغوجي يمكن تلخيصه في النقاط الآتية:
➤ أن المتعلمين لا يتعلمون بالمقياس الزمني نفسه ولا يحصلون المعارف والموارد بالوتيرة

نفسها .

➤ كل متعلم يحتاج إلى مدة زمنية للتعلم تخصه هو، دون إسقاطها على غيره، قد تكون قصيرة أو متوسطة أو طويلة .

➤ من الخلل على المستوى البيداغوجي منح المتعلمين في فصل دراسي واحد، المدة الزمنية نفسها للإنجاز أو الإنتاج أو الاكتساب .

➤ أن القرآن الكريم بين بجلاء ومن جميع الجوانب الأهمية البيداغوجية لزمن التعلم ودوره في التحصيل للرقى بجودة التعليمات .

من هنا نستشف أن القرآن الكريم كله زمن بيداغوجي من أول آية نزلت إلى آخر آية، راعى الخاصية الزمنية للخطاب وللتواصل بشكل فريد، تلك سمة تتم عن مقصدية الإبداع والتبليغ.

3.3.2 التواصل في القرآن الكريم والتيسير البيداغوجي:

لنتناول موضوع التواصل في القرآن الكريم، وفي علاقته بالتيسير البيداغوجي ارتأينا الوقوف عند مادة "يسر" من حيث الدلالة التي ارتبطت بها في المعاجم، ثم الوقوف عند ألفاظها في القرآن الكريم، ومن ثمة الكشف عن الملامح البيداغوجية التي يمكن أن تقدمها هذه المعاني في ارتباطها بالألفاظ، فما هو المدلول اللغوي لمادة "يسر"؟ "يسر": التيسير اللين والانقياد ويأسره لآينه ويأسره ساهله، وفي الحديث أن هذا الدين يسر ضد العسر أراد أنه سهل سمح قليل التشديد... والعرب تقول يسرت الغنم إذا ولدت وتهيات للولادة ويسرت الغنم كثرت وكثر لبنها ونسلها وتيسير الشيء واستيسر تسهل". (ابن منظور، 1414هـ ج5 ص295).

نستخلص من هذا التعريف أن التيسير يفضي إلى نتيجة تتمثل في نيل المراد، وبلوغ المقصد، وله دلالة كثرة العطاء، وقد وردت مادة "يسر" في القرآن الكريم إحدى عشرة مرة، وبصيغ مختلفة، ومن الآيات الحاملة لهذه المادة نجد ما يأتي:

- {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} القمر الآيات 17_22_32_40
- {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} مريم الآية 97
- {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} الدخان الآية 58

والم تأمل للفظ "اليسر" يجده سهلا مبنى ومعنى، وقد وصفت به الشريعة السمحة، فهي شريعة يسر في أرفع المعاني، الشيء الذي جعل جغرافيتها واسعة لا تضاهيها في ذلك جميع شرائع الأرض الوضعية، أما معاني اليسر في القرآن من دون اللفظ فهي كثيرة جدا، ومنها: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} "الطلاق الآية 7". يقول السعدي في معنى "يسرنا القرآن" - التي وردت في سورة القمر أربع مرات-: "أي ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء ومعانيه للفهم والعلم لأنه أحسن الكلام لفظا وأصدق معني وأبينه تفسيرا، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون... قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه"(السعدي، 2000، ج1، ص825)

إن تواتر معاني اليسر في القرآن لفظا ومعنى لدليل قاطع أن هذا الكتاب ما جاء إلا لرفع المشقة على الناس، والحرص على العباد في مختلف الجوانب المرتبطة بحياتهم دينا ودنيا، ولاشك أن هذا التيسير يجب أن ينعكس انعكاسا واضحا على مناهج في الحياة، وما القضية التربوية إلا واحدة من هذه القضايا.

إن التيسير أمر ضروري إن نحن أردنا أن نبني إنسانا بالمفهوم الفعلي للإنسان، وأن كل سياسة تربوية رامت التعسير -ولو عن غير قصد- يكون إقصاء الفرد فيها أحد معالمها الأساسية، والدول الرامية إلى مستقبل أفضل تزدهر فيه نتائج مدارسها هي التي تتجه إلى تحقيق قدر كبير من التيسير في برامجها، ساعية بذلك إلى

بناء معرفة متدرجة، كما أنها تميل إلى جعل محتوى المواد المدرسية مناسبة لقدرات المتعلمين من حيث السن ومن حيث المؤهلات، فكانت المرونة في طرق التدريس والتقويم ميسرة بشكل كبير مما يضمن التوازن النفسي والاجتماعي للمتعلمين، والحق يقال إن التيسير البيداغوجي كان أحد أهم معالم الحضارة الإسلامية، لقد كان احترام رغبات المتعلمين على مستوى التخصصات والتوجهات المختارة شائعاً، ومما يؤسف له في هذا الزمان أن العملية التعليمية التعلمية أضحت مؤرقة في كثير من جوانبها، سواء تعلق الأمر بذاك الكم المصطلحي المعرفي البعيد في كثير من الأحيان عن الاستعمال الوظيفي، أو المضامين المثخنة بعناصر الحشو غير المفيد، أو الطرائق البيداغوجية المترجمة في الغالب، مما يسبب إرهاقا للمتعلم وللمعلم على حد سواء، وهذا من شأنه أن يفضي إلى تضييع المجهودات وتشثيتها، فتأتي النتائج واهنة، ومن مظاهر هذا الخرق لمبدأ التيسير البيداغوجي وكما ذهب إلى ذلك تقرير المجلس الأعلى للتعليم في المغرب "أن هذا التضخم في البرامج الذي ظل محط مؤاخذه منذ سنوات يؤدي إلى حدوث تفاوت بين مستوى التحصيل العملي للتلميذ وبين الأهداف التي تحددها المنظومة لارتقائهم الدراسي، وتراكم النقص في المكتسبات الدراسية، وتدعو العديد من الفعاليات إلى ضرورة تخفيف البرامج وإعادة تركيزها على تحسين كفايات التلاميذ عوض محورتها على متراكمة المعارف (تقرير المجلس الأعلى للتعليم، 2008، ص68).

وأحسب أن من شأن هذا التخفيف على مستوى البرامج المكدسة أن ييسر العملية البيداغوجية، ويجعل أهدافها واضحة غير معقدة قابلة للتحقق.

4. خاتمة:

نقول في نهاية هذه الورقة إن القرآن الكريم _ في أصله _ خطاب تواصلي، وأن أهدافه التواصلية بعيدة الغايات والمرامي، سواء تعلق الأمر بالتواصل في مفهومه العام أو التواصل بمفهومه الخاص والمتعلق أساسا بالتواصل البيداغوجي، ويمكن إجمال الخصائص التواصلية للقرآن الكريم، في النقاط الآتية:

التواصل في القرآن الكريم تواصل متفرد وراق تجاوز الوظيفة الإخبارية إلى الوظيفة المنهجية.

للتواصل في القرآن الكريم مجموعة خصائص لا تتوفر في جميع الخطابات التواصلية ومنها الإبانة والمقصدية والسياقية والحجاجية .

البعد الإعجازي للتواصل في القرآن الكريم يبدو واضحا ولا أدل على ذلك من الآيات التي جاء في مقام التواصل الهادف إلى التحدي.

جاء التواصل في القرآن الكريم لتحقيق الوظائف التربوية بمختلف أنواعها وخاصة الشق المتعلق بالمثل الرفيعة والقيم الفضلى .
النفائس البيداغوجية في القرآن الكريم أكثر من أن تحصى والأمر يحتاج إلى الباحث النطاسي الذي يلج إلى بواطن الآيات ليستنتق كنهها .
الإشارات البيداغوجية في القرآن الكريم تعن للقارئ المهتم ومضات براءة .
جغرافية القرآن الكريم واسعة ممتدة في الزمان و المكان لا يمكن تقييدها بنوع من أنواع التفسير .
عروة الارتباط التواصل بين اللغة العربية والقرآن الكريم متينة إلى أبعد الحدود، فعلى جذع القرآن الصلب نمت أفنانها .
- البحث في القرآن الكريم ما يزال غضا طريا في مراحل الأولى وأن عجائبه لا تنتضي، وما أوسع جغرافية القرآن الكريم .
كما ندعو في خاتمة هذا المقال إلى إنشاء مراكز أبحاث تعنى بالتواصل البيداغوجي في القرآن الكريم، والسنة النبوية لإعانة المدرسين على الاغتراف مما يحفل به الخطاب الشرعي من لفتات بيداغوجية وضاءة .

5. قائمة المراجع:

1. إبراهيم، سيد، قطب (1412)، في ظلال القرآن، منشورات دار الشروق، بيروت، القاهرة، (ط17).
2. أبو الفضل، جمال الدين، بن منظور، الإفريقي، (1414)، لسان العرب، دار صادر، بيروت (ط3).
3. أبو القاسم محمود الزمخشري جار الله (1407)، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، (ط3) .
4. أبو عبد الله، فخر الدين، الرازي (1420)، مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت (ط3).
5. أبو عبيدة، بن المثنى (1381)، مجاز القرآن، تحقيق محمد فواد سزكين، نشر مكتبة الخانجي القاهرة.
6. تقرير المجلس الأعلى للتعليم، (2008)، مجلة علوم التربية المغرب، مجلة دورية مغربية متخصصة.

ع 38 سبتمبر.

7. تمام، حسان، (1981)، الأصول، دراسات إبيستمولوجية لأصول الفكر اللغوي عند العرب، منشورات دار الثقافة (ط1)
8. الجابري محمد عابد، (1993)، بنية العقل العربي، المركز الثقافي، بيروت لبنان (ط3) .
9. الجرجاني، عبد القاهر، (1992)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة (ط3)
- جمال الدين، بن هشام، (1985)، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق مازن المبارك، محمد علي حمد الله، منشورات دار الفكر دمشق، (ط6).
10. الشافعي، محمد، بن إدريس، (1940)، الرسالة، تحقيق احمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (ط1)
11. عبدالرحمان، بن ناصر، السعدي : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان _تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، نشر مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى.
12. العربي السليمان، (2010)، المعين في التربية ، مطبعة النجاح البيضاء (ط4).
13. غريب، عبد الكريم، (2001)، المنهل التربوي، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، (ط1)
15. محمد، الورياكلي (2014/09/26)، منتدى جبالة
16. محمد، الصدوقي، (2010)، الزمن البيداغوجي المغربي، ملاحظات وتساؤلات، مجلة علوم التربية، مطبعة النجاح (ع 38، 79، 75) .
17. محمد، بدر الدين، الزركشي، (1994)، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الكتبي، (ط1).
18. محمد، متولي، الشعراوي، (1997)، تفسير الشعراوي، الخواطر_ منشورات مطابع أخبار اليوم.
19. محمد، الطاهر، بن عاشور (1984)، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الناشر الدار التونسية للنشر بتونس.

20. محمد، بن حبيب، الماوردي، (1993)، النكت والعيون، تحقيق، السيد بن عبد
المقصد، دار
الكتب العلمية، بيروت.